عمرو بن مسعدة

عصره:

من أجمل عصور الأمة العربية، عصر المأمون العباسي، كان السلطان الأكبر فيه للعقل؛ وقلَّ المتوثبون على الخلافة، والعابثون بأهواء الناس، وانصرفت الأمة إلى شئونها في ظل السلام، فزادت سعادتها، وشملتها الرفاهية والهناء؛ نظر المأمون في ماضي الملة وحاضرها، فرأى أن من أعظم ما يكدر شرعة سياستها، طموح آل البيت إلى الخلافة منذ أوائل العهد الأموي، يهتبلون الغرة للاستيلاء على زمام الأمر، فيضطرب كل بلد نجم فيه ناجم منهم.

وكان آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منذ عهد المنصور ومن بعده يتوجسون خيفة من قوة العباسيين، فيستخفون ويبتعدون عن الناس، فخفيت بعزلتهم عن العوام حقيقة أمورهم، وظنوا فيهم ما يظنونه بالأنبياء، وأنشئوا يتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي، فنظر المأمون في هذا الأمر نظرًا بليغًا وقال: لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم لسقطوا من أعينهم، ولانقلت شكرهم لهم ذمًّا. ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءًا، وإنما الرأي أن نقدم أحدهم ويظهر لهم إمام، فإذا رأوا هذا أنسوا وظهروا، وأظهروا ما عندهم من حركات الآدميين، فيتحقق للعوام حالهم، وما هم عليه مما خفي بالاختفاء.

واستشار المأمون خاصته فأشاروا عليه بعلي بن موسى الرضا، فعقد له ولاية العهد من بعده، (لما رأى من فضله البارع، وعلمه الناصع، وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخليه عن الدنيا)، ولقبه الرضا من آل محمد، وساوى بين آل علي وآل هاشم، غاضًّا الطرف عن شكاية بني العباس، وكانوا قد بلغ عددهم لعهده ثلاثة وثلاثين ألف إنسان. وبذلك استقرت الحال، وكفيت المملكة شر الغوائل الداخلية.

تجلى عقل المأمون في هذه الطريقة الجديدة، بيد أن عمله لم يرض عنه الشيعة ولا السنة: الشيعة لا يرضيهم إلا القبض مباشرة على قياد الأمر، وإزالة كل مُلك إلا لشيعتهم، والقضاء على كل خليفة وخلافة؛ والسُّنة لأنه عهد بولاية العهد إلى أمثل رجل علوي في عصره، فحاذروا أن تخرج الخلافة عنهم، وتهامسوا بشيعية المأمون، وهو فوق ما تصوروا وقدروا؛ اتخذ خصومه من هذا العمل حجة لإفضاء الخلافة إليهم، فأبدوا نواجذ الشر، ولكنهم لم يفلحوا.

أما صلات المأمون مع الدول المجاورة فكانت حسنة في الجملة، خصوصًا مع صاحب الروم، ومملكة هذا ظلت في ذاك العصر على شيء من التماسك والقوة أمام سلطان العرب، بيد أن كلمة المأمون كانت هي العليا في فض كل خلاف يعبث بحقوق الجوار، ويشوه وجه السلام الجميل. كتب توفيل بن ميخائيل صاحب الروم مع وزيره يطلب من المأمون الصلح وعرض الفدية، ومما قال في كتابه: «وقد كنتُ إليك داعيًا إلى المسالمة، راغبًا في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد وليًّا وحزبًا، مع اتصال المرافق، والفسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمن الطرق والبيضة»، كتب إليه المأمون يهدده برجاله: «الذين يتقربون إلى الله بدماء الروم، وهم أظمأ إلى ورود المنايا منهم إلى السلامة»، جاء في آخره:

«غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة، فإن أبيت ففدية توجب ذمة».

ومن دعوة المأمون ملك الروم إلى الإسلام تفهم عزة الأمة في عصره، ثم حدثت أحداث في بعض بلاد الشرق وديار مصر وربيعة واليمن، فأُطفئت ثائرتها ولم تتعد الأرض التي انبعثت شرارتها منها؛ قال الهمداني: «وقد كانت للخلفاء فتوح، ولكنه لم يتسق لأحد ما اتسق للمأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله، إلا أن فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد إلى ملكهما، فبلغا في ذلك ما لم يبلغه أحد في الإسلام من الملوك»، ومن يختار كالخليفة المأمون لحماية البيضة وقيام الدولة أمثال طاهر بن الحسين، وعبد الله بن طاهر، وهرثمة بن أعين، والفضل بن سهل، وسهل بن هارون، وعمرو بن مسعدة إلى غيرهم من القواد والوزراء والكتاب والعمال، لا يلقى عمله غير النجاح، ولا يعتري سلطانه ضعف ووهن.

أتم المأمون ما بدأ به جده المنصور وأبوه الرشيد من ترجمة كتب الأوائل، واستجادة مهرة التراجمة لنقل الكتب التي أخذها من الروم، وندب ابن البطريق إلى الروم ليأتيه بكتاب السياسة لأرسطو الذي ألفه للإسكندر، وكان مكتوبًا بالذهب المحلول، في رق مصبوغ بالفرفير، منقوطًا بالفضة البيضاء المحلولة، فرجع إلى الحضرة ظافرًا بالمراد، وسعى، كما قال بعون الله وبسعد أمير المؤمنين وَجَده، في ترجمته ونقله إلى اللسان اليوناني إلى اللسان العربي.

وكان الرشيد بدأ بترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدها بأنقرة وعَمُّورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها؛ ولما ولي المأمون الخلافة أتم ما كان شرع فيه أبوه، فأخذ يغدق صِلاته على المترجمين والفلاسفة، وربى المأمون بني شاكر محمدًا وأحمد

والحسن حتى صاروا علماء، فحققوا طول محيط الأرض، وكانوا يرزقون النقلة نحو خمسمائة دينار في الشهر، وكان دَخل محمد وحده أربعمائة ألف دينار.

وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه، ودُعيت الصورة المأمونية، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك؛ وقد وضع له علماء رسم الأرض، وكانوا سبعين رجلًا، كتابًا في الجغرافيا أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التي أظلتها الراية العباسية.

وسأل المأمون ملك الروم صلته بما لديه من كتب الفلاسفة، فبعث إليه منها بما حضره من كتب أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة، فترجمت له وحضّ الناس على قراءتها، ورغَّبهم في تعلمها، فنفقت سوق العلم في زمانه، وتنافس أولو النباهة في العلوم، لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها، وكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب.

وازدان عصر المأمون بكثير من حملة الشريعة والأدب، وكان الشعراء والكتاب طبقة عالية كثيرة العدد والحصى، جيدة المنحى والأسلوب، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر الإسلامي ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي، بعيدًا عن وصف الأطلال والدمن والركاب، وطلب الثأر والمفاخرات، والجمهور يشارك الأدباء في فهم الشعر، ويقدر الخطب والرسائل قدرها، ولم يكن الشعراء في وادٍ والأمة في آخر؛ بل كان الشاعر أو الكاتب إذا قرض شعرًا أو حبَّر خطابًا تتناقله

الأيدي في الحال، وتتعاوره الرواة فيفشو في الأمصار، وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب، وشعر الشاعر، وخطبة الخطيب.

أعمال الكبير كبيرة، والمأمون العظيم بأعماله وأقواله كان خليفة المسلمين بكل ما في لفظ الخلافة من معنى شريف، يجمع مصالح الدين والدنيا؛ كان رحمه الله يفكر منذ عهد بعيد في خلق القرآن حتى اعتقد أن كل من لم يقل بقوله ضالٌّ، فوضع هذا البحث موضع المناقشة بين العلماء، فقال السواد الأعظم بقوله، وأبى بعضهم تورعًا أن يوافقوه على أن القرآن مخلوق، فطلبهم للبحث، وكان في مصيفه في الرَّقة، وكتب إلى عامله في بغداد أن يمتحن القضاة والمحدثين ويكشفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه، وقال له: «وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته، بمن لا يوثق بدينه، وخلوص توحيده ويقينه» و«أنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق». وأمر أيضًا بأن يكتب إلى الآفاق بذلك؛ وقد أحدث هذا الرأي ضجة في الأمة شأن كل فكر جديد ينقسم فيه الناس إلى مثبت ونافٍ، ودل بعض الممتنعين عن التصريح بما لا يعتقدونه على الأخذ بالاحتياط في دينهم، فأوذي بعضهم وما أراد المأمون أذاهم، وقُبض إلى ربه وبعض الذين توقفوا عن التصريح بما أُريدوا على البيان فيه قِيد السجن، فاتخذ أعداؤه من ذلك سبيلًا إلى النيل منه، وسموا ذلك المحنة؛ وفي هذا العصر الزاهر نشأ عمرو بن مسعدة.

أصله وحياته ونشأته:

هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول بن صُول، وصول كان رجلًا تركيًّا، وكان مُلِّك وأخوه فيروز على جرجان، وتمجسا بعد التركية، وتشبها بالفرس،

وصُول لقب ملوك دهستان، كان يطلق عليهم كما يطلق شاهنشاه وكسرى على ملوك الفرس الساسانية.

ولما وافى يزيد بن المهلب بن أبي صُفرة في ولاية سليمان بن عبد الملك بن مروان جرجان أمَّن الأخوين، فأسلم صُول على يده، وغدا محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها بعد ذلك. وكان بعض أهليهم ادعوا أنهم عرب، وأن العباس بن الأحنف الشاعر خالهم. وقيل: إن أبا الفضل عمرو بن مسعدة هو مولى خالد القسري، وقيل: بل كان مسعدة والد عمرو مولى خالد بن عبد الله القسري أمير العراق، وكان يكتب له، وكتب لخالد بن برمك، ثم كتب بعده لأبي أيوب وزير المنصور على ديوان الرسائل.

وكان لمسعدة أربعة بنين: مجاشع ومسعود وعمرو ومحمد؛ ومجاشع هو الذي يقول فيه أبو العتاهية:

علمت يا مجاشع بن مسعدة أن الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء أي مفسدة

عمل الكاتب ابن الكاتب عمرو بن مسعدة للدولة، فظهرت كفايته وبلاغته، فعُدَّ أحد أفراد قلائل في رجال الخليفة. قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت يومًا على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى، ويُصعد فيه ويصوب، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت إليَّ وقال: يا أحمد أراك مفكرًا فيما تراه مني. قلت: نعم. فقال: إن في هذا الكتاب كلامًا نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة، زعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحدًا يقدر على ذلك، وقال: هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا، ففككته فإذا فيه: «كتابي إلى أمير المؤمنين،

ومن قِبَلي من قواده، ورؤساء أجناده، في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم[١]، فاختلت لذلك أحوالهم، والتاثت[٢] معه أمورهم». فلما قرأته قال: إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قِبَله بأعطياتهم لسبعة أشهر، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلّ محله في صناعته. وفي رواية: أن المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر، وأنه قال لأحمد بن يوسف: لله در عمرو ما أبلغه، ألا ترى إلى إدماجه المسألة في الإخبار، وإعفائه سلطانه عن الإكثار.

وكان عمرو بن مسعدة، وكنيته أبو الفضل، أبيض أحمر الوجه، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه، وكان يخضب، وتوفي بأذَنَة سنة سبع عشرة ومائتين؛ ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيذه، وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم تربيتهم حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة، التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه؛ ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شئونه يجب أن ينطوي على صفات عالية يعزُّ مثلها في الأقران والأتراب؛ وفي تاريخ بغداد أنه روى الحديث عن جماعة، ووصفوه بأنه الكاتب الرسائلي، وأنه كان يقول الشعر بفضل أدبه.

قال عمرو بن مسعدة: كنت أُوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع إليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها إليَّ وقال: أجب عنها. فكتبت: «قليل دائم خير من كثير منقطع». فضرب بيده على ظهري وقال: أي وزير في جلدك. وقد

(١) العطا، ويمد: ما يعطى كالعطية (ج) أعطية (جج) أعطيات، وتراخت: تقاعست وتأخرت.
(٢) الالتياث: الاختلاط.

شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره، ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه: إنه أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله، فإذا رامه بَعُدَ عليه. وهذا كما قيل لأحد البلغاء: ما حدُّ البلاغة؟ فقال: التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استصعبت عليه.

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص، وأفرد مسألة في التأليف، وإن قالوا: إن له رسائل وأقوالًا. وعده ابن النديم في الشعراء الكُتَّاب، ولم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر؛ والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتًا يصرفه في درس خاص، أو وضع كتاب أو رسالة، وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه هو مما رواه له المعجبون به، وما أعظم المفقود منه. والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير؛ لأنه صرف أعوامًا طويلة وهو قابض على براعته يعالج بها الموضوعات المهمة في ذاك المجتمع العظيم.

وأفادنا ابن عساكر أن عمرو بن مسعدة زار دمشق مع المأمون، وأنه من رجال الحديث فأسند حديثًا عن المأمون في سندٍ ذكره عن عمرو بن مسعدة، قال: سمعت المأمون أمير المؤمنين يقول: حدثني أبي عن أبيه عن عمه عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «علقوا السوط حيث يراه أهل البيت؛ فإنه أدب لهم»، وفي الأمثال: «علق سوطك حيث يراه أهلك»، والمعنى: اجعل نفسك بحيث يهابك أهلك، ولا تغفل عنهم وعن تخويفهم وردعهم.

ولم نعلم نوع الدراسة التي انصرفت إليها همة عمرو بن مسعدة في صباه حتى بلغت به البلاغة ذاك المقام، بيد أن ظواهر الحال تدل كل الدلالة على أن من كان هذا شأنه من الكتابة في ذاك العصر الزاهي بمن يشار إليهم بالبنان في البيان، يستحيل أن

يبلغ هذا المبلغ إلا بأدوات كثيرة، بل لا يتأتى له ذلك إلا بجميع أدوات البيان والشريعة، يجمعها إلى ما خُصت به فطرته من سلامة الطبع وجودة الإبداع؛ وفوق ذلك لا بد له من التخريج بهذه الصناعة أعوامًا طويلة، وصحف التاريخ لم تعرفنا عمرو بن مسعدة إلا أنه تام الأدوات، كأن بلاغته مما ارتجل ارتجالًا، أو مما وهبته له الفطرة عرضًا؛ وصرف عمرو أيام حياته على ما يظهر بالتصرف، جعل نفسه وقفًا على مهام الخلافة، فأقبلت عليه الدنيا إقبالًا عظيمًا، فنعم ولذّ واغتبط، وقصده القاصدون، وطابت نفسه باصطناعهم والإحسان إليهم، وعطف على العفاة والقصاد فاستكثر من الأنصار، وانبسطت نفسه ويده بالعطاء، فتعشقته نفوس الناس وأهل الدولة؛ والخليفة من وراء ذلك يمده، ويطلق يده في المال والنوال؛ ومن جعل وُكده في هذه الأعمال يتعذر عليه أن ينقطع إلى نفسه أيامًا يصرفها في عمل يخلد به ذكره، ويعم القاصي والداني والحاضر والمقبل نفعه؛ وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

واختلفوا في كون عمرو بن مسعدة ولي الوزارة أو لم يتولها، فقال ياقوت: سماه بعض الشعراء وزيرًا لعظم منزلته لا لأنه كان وزيرًا. وقال المسعودي: إن المأمون استوزر الفضل بن سهل ثم أخاه الحسن بن سهل، فلما أظهر العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله، عدل المأمون إلى استكتاب كُتّاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم؛ وأنه ليس في عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم، فاستوزرهم واحدًا بعد واحد أولهم أحمد بن أبي خالد، ثم أحمد بن يوسف، ثم أبو عباد ثابت بن يحيى، وعمرو بن مسعدة بن صُول، وكان يجري مجراهم ولا يعده كثير من الناس في الوزراء، قال: ولم يكن يسمى بين يدي المأمون أحد من كتّابه وزيرًا، ولا يكاتب بذلك، فلأجل هذا ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا في الوزراء. ومهما كان فالرتبة التي بلغها عمرو بن مسعدة وزارة وزيادة، وكان إليه ديوان الرسائل وديوان

الخاتم والتوقيع والأزِمَّة، وسواء تقلد الوزارة أم لم يتقلدها، فإن العظائم التي كان يندب إليها تدل على درجة الثقة به.

شيء من كلامه:

ومن كلام عمرو بن مسعدة: أعظم الناس أجرًا، وأنبههم ذكرًا، من لم يرض بموت العدل في دولته، و(يتوخَّى) ظهور الحجة في سلطانه، وإيصال المنافع إلى رعيته في حياته. وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في أيامه، وبعد وفاته وانقراضه. وقال: الخط صور الكتب ترد إليها أرواحها. وكان يقول: الخط صورة جميلة لها معان جليلة، وربما ضاق عن العيون، وقد ملأ أحظار الفنون.

ونسب إليه: لا تصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب، سريعًا إلى الذم.

وكتب إلى الحسن بن سهل: أما بعد، فإنك ممن إذا غرس سقى، وإذا أسَّس بنى، ليستتم تشييد أُسّه، ويجتني ثمار غرسه، وثناؤك عندي قد شارف الدروس، وغرسك مشفٍ على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست، وسْقيَ ما غرست، إن شاء الله.

وكتب إلى بعض أصحابه في شخص يعزُّ عليه: أما بعد، فموصل كتابي إليك سالم، والسلام. أراد قول الشاعر:

يُـديرونني عـن سـالم وأُديـرهم ... وجلـدة بـين العـين والأنـف سـالم

أي: يحل مني هذا المحل.

وكتب إلى المأمون في رجل من بني ضَبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضًا: «أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك عليَّ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام». فكتب إليه المأمون: قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبناك إليهما، ووافقناك عليهما. اهـ. وقوله: «إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته» من الكلام السَّرِي الذي يدل على مبلغ أدب عمرو، وبعد غوره في السياسة، ووقوفه على نفسية الخلفاء.

قدم رجل من أبناء دهاقين[1] قريش على المأمون لعِدَة سلفت منه، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون، فقال لعمرو بن مسعدة: تُوصل منى رقعة إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك عليَّ نعمتان. فكتب: «إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاءِ حاجته، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله». فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمرًا، فجعل يعجب من حسن لفظها، وإيجاز المراد. فقال عمرو: فما نتيجتها يا أمير المؤمنين. قال: الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة مائة ألف درهم، صلة عن دناءة المطل، وسماجة الإغفال.

وكتب عمرو بن مسعدة عن المأمون إلى أحد الخوارج عليه، نصر بن شبث: أما بعد؛ فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها، وبرد ظلها، وطيب مرتعها، وما في خلافها من الندم والخسار، وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يُملي لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر إصرارهم واستحثاثهم؛ وقد رأيت

(١) الدهاقين: الزعماء أرباب الأملاك بالسود، واحدهم دهقان بكسر الدال، معرب.

إذكارك وتبصيرك لما رجوت بما أكتب به إليك موقعًا منك، فإن الصدق صدق، والباطل باطل؛ وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك من خطئك مني. فبأي أول أو آخر أو واسطة أو إمرة، إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله، وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبيت آمنًا أو مطمئنًا أو وادعًا أو ساكنًا أو هادئًا؛ فوعالم السر والجهر، لئن لم تكن للطاعة مراجعًا، وبها خانعًا، لتستوبلنَّ وَخَم العاقبة، ثم لأَبدأنَّ بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تُقطع كانت في الأرض فتنة وفسادًا كبيرًا، ولأطأن بمن معي من أنصار الدولة كواهل الرعاع أصحابك، ومن تأشب إليك من أداني البلدان وأقاصيها، وطغامها وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خُراب الناس، ومن لفظه بلده ونفته عشريته، لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر، والسلام.

ومن حِكم عمرو بن مسعدة: العبودية عبودية الإخاء، لا عبودية الرق. الود أعطف من الرحم. إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة. عليكم بالإخوان، فإنهم زينة في الرخاء، وعُدة للبلاء. النفس بالصديق آنس منها بالعشيق، وغزل المودة أرق من غزل الصبابة. من حقوق المودة عفو الإخوان، والإغضاءُ عن تقصير إن كان. ذكر رجل رجلًا فقال: حسبك أنه خُلق كما تشتهي إخوانه. المودة قرابة مستفادة. ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلا لفضلهما أو فضل أحدهما. أسرع الأشياء انقطاعًا مودة الأشرار. المحروم من حرم صالحي الإخوان. لقاءُ الخليل شفاء الغليل. قلة الزيارة أمان من الملالة. إخوان السوء كشجر (في) النار يحرق بعضه بعضًا. علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ولا يبتدئ بالكتاب. لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له. من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندمًا. إذا قُدمت الحرمة تشبهت بالقرابة. العتاب

حياة المودة. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. ما أكثر من يعاتب لطلب علة. ويبقى الود ما بقي العتاب. كمون الحقد في الفؤاد ككمون النار في الزناد. القريب بعيد بعداوته، والبعيد قريب بمودته. لا تأمنّ عدوك وإن كان مقهورًا، واحذره وإن كان مفقودًا، فإن حد السيف فيه وإن كان مغمودًا. لا تتعرض لعدوك في دولته، فإنها إذا زالت كفتك مؤونته. نصح الصديق تأديب، ونصح العدو تأنيب.

روى البيهقي قال: أخبرنا بعض أصحابنا قال: شهدت المأمون يومًا وقد خرج من باب البستان ببغداد، فصاح به رجل بصريّ: يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد، وإن أبا الرازي فرَّق بيننا، وقال: هي امرأة من قريش، قال: فأمر عمرو بن مسعدة، فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش، فمتى تحاكمت إليك العرب لا أُمَّ لك في أنسابها، ومتى وكلتك قريش بابن اللخناء[1] بأن تلصق بها من ليس منها، فخلِّ بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سُميّةَ بغي عاهرةٍ، لا يُفتخر بقرابتها ولا يتطاول بولادتها، ولئن كان ابن عُبيد لقد باء بأمر عظيم، إذ ادعي إلى غير أبيه، لحظٌّ تعجله ومُلك بهره اهـ.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل عناية به إلى بعض العمال في قضاء حقه، وأن يختصر كتابه ما أمكنه حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد لا زيادة عليه، فكتب عمرو: كتابي كتاب واثق بمن كتب إليه، معنيّ بمن كتب له، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله.

---

(١) اللخناء: الأمة المنتنة المغابن.

وكتب إلى الحسن بن سهل: أما بعد؛ فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين، وزيادته إياك في عدده لمحلك عنده ومكانك من دولته؛ وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلامًا سريًّا، فبارك الله لك فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، مباركًا سعيدًا زكيًّا.

ومن كتاب: وصل إليَّ كتابك، على ظمأ مني إليه، وتطلع شديد، وبعد عهد بعيد، ولوم مني على ما مستني به من جفائك، على كثرة ما تابعت من الكتب، وعدمت من الجواب، فكان أول ما سبق إليّ من كتابك السرور بالنظر إليه، أُنسًا بما تجدد لي من رأيك في المواصلة بالمكاتبة، ثم تضاعفت المسرّة بخبر السلامة، وعلم الحال في الهيئة، ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج في ترك الكتاب، سالكًا سبيل التخلص مما أنا مخلصكَ منه، بالإغضاء عن إلزامك الحجة، في ترك الابتداء والإجابة، وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة ممكّنة، لا أجشمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب، ويقنعني منك في كل شهر كتاب، ولن تلزم نفسك في البر قليلًا، إلا ألزمت نفسي عنه كثيرًا، وإن كنت لا أستكثر شيئًا منك، أدام الله مودتك وثبت إخاءك، واستماح لي منك، فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موفقًا، إن شاء الله.

وقال عن نفسه: إنه كتب إلى عامل دسْتَبي كتابًا أطاله، فأخذه المأمون بيده وكتب: «قد كثر شاكوك فإما عدلت، وإما اعتزلت»؛ فبالإيجاز فاز ابن مسعدة بجائزة البلاغة، والإيجاز في اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير، وكم من لفظ كثير يدل على معنى قليل، ومثال ذلك الجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، والبلاغة كما قال أرسطاطاليس: أن تجعل في المعنى الكثير كلامًا قليلًا، وفي

القليل كلامًا كثيرًا، وهذه البلاغة الموجزة يلمسها المرءُ في كلام هذا الذي فتن نظراءه بفنه.

لا تجد في كلام عمرو شيئًا من الوحشيِّ ولا السوقيّ، فألفاظه تتفهمها عامة طبقات القارئين والسامعين؛ أما تركيبه ونسجه فهو أيسر تركيب يجري مع الطبع، كأنه في إيراده يتكلم كلامه المعتاد معربًا ويسطره في الورق، نعم وهناك صعوبة في تحديه في جوامع كلمه. الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة قد تنتقل في الأيدي ويعجب بها ناظروها، ويفاخر بها مالكوها، ولكن متى وصلت إلى أيدي الصائغ الحاذق والجهبذ النقاد، تزيد بهاءً ورواءً، ويتجلى فيها فكر الآفق المفنن، فالسبك الحسن في كلام عمرو هو الذي تفرد به، ولما رأى أنه أبدع فنه زاد في تجويده، لانقطاعه معظم حياته إلى الخدمة، والسياسي من جملة خصائصه أن يوجز ويجمجم أحيانًا، ويعرّض لئلا يؤخذ بإقراره وتؤول له عباراته، وعمرو نبغ في هذه الطريقة.

ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدهم أغر، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسنًا، فبلغ المأمون خبره وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك، فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه محمدة، فوجه به إليه هدية وكتب معه:

يا إمامًا لا يدا ... فيه إذا عدّ إمام

فضل الناس كما يفـ ... ـضل نقصانًا تمام

قد بعثنا بجواد ... مثله ليس يرام

فرس يُزْهَى به لل ... ـحسن سرج ولجام

دونه الخيل كما دونـ ... ـك في الفضل الأنام

وجهه صبح ولكن ... سائر الجسم ظلام

والذي يصلح للمبـ ... ـلى على العبد حرام

يقول الثعالبي: إنه لم يكن في الأكاسرة بعد أزدشير الذي له فضيلة السبق أعدل من أنوشروان، ولذلك ضرب المثل به في العدل من بينهم؛ فأما سائر الأكاسرة فإنهم كانوا ظلمة فجرة يستعبدون الأحرار ويجرون الرعايا مجرى الأجراء والعبيد والإماء، فلا يقيمون لهم وزنًا، ويستأثرون عليهم حتى بأطايب الأطعمة والثياب الحسنة والمراكب، والنساء الحسان، والدور السرية، ومحاسن الآداب، فلا يجترئ أحد من الرعايا أن يطبخ سكباجًا، ويلبس ديباجًا، أو يركب هملاجًا، أو ينكح امرأة حسناء، أو يبني دارًا قوراء، أو يؤدب ولده، أو يمد إلى مروءة يده، وكانوا يبنون أمورهم على معنى قول عمرو بن مسعدة للمأمون -ملك ما يصلح للمولى على العبد حرام- إلا أنهم كانوا يحبون العمارة أشد الحب، ويرونها قوام الدين والملك، ولا يقارون أحدًا على الإخلال بها والتقصير فيها. وعمرو هو القائل:

ومستعذبٍ للهجر والوصل أعذب ... أكاتمه حُبي فينأى وأقرب
إذا جدتُ مني بالرضا جاد بالجفا ... ويزعم أني مذنب وهو أذنب
تعلمت ألوان[1] الرضا خوف هجره ... وعلَّمه حبي له كيف يغضب
ولي غير وجه قد عرفت طريقه ... ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

قالوا: وهذان البيتان الأخيران متنازعان؛ على أن محمد بن عمرو بن مسعدة ذكر أنا أباه لم يقل من الشعر شيئًا إلا بيتًا واحدًا، فوقّع في ظهر رقعة لرجل:

أعزز عليَّ بأمر أنت طالبه ... لم يكن النجح فيه انقضى أمده

(١) في رواية: أبواب بدل ألوان.

عظمة أخلاقه:

ذكروا أن شقيقه مجاشع بن مسعدة كان صديقًا لأبي العتاهية الشاعر، يقوم بحوائجه كلها، ويخلص مودته، فمات، وعرضت لأبي العتاهية حاجة إلى أخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها، فكتب إليه أبو العتاهية:

غَنيت عن العهد القديم غَنيتا ... وضيعت ودًّا بيننا ونسيتا
ومن عجب الأيام أن مات مألفي ... ومن كنت تغشاني به وبقيتا

فقال عمرو: استطال أبو إسحاق أعمارنا وتوعدنا، ما بعد هذا خير، ثم قضى حاجته.

ومرَّ عمرو بن مسعدة مرة بأبي العتاهية وهو جالس على الطريق، فوقف عليه يسأل عن حاله، فما قام ولا رفع إليه رأسه وهو يقول:

أقعدني اليأس منك فما ... أرفع رأسي إليك من كلي

وهجا شقيقه مجاشع حماد عجرد وهو صبي حينئذ، فشبب حماد بأمه، فبلغ الشعر عمرو بن مسعدة، فبعث إلى حماد بصلة، وسأله الصفح عن أخيه، ونال أخاه بكل مكروه، وقال له: ثكلتك أمك! أتتعرض لحماد، وهو يثاقف[1] بشارًا ويقاومه، والله لو قاومته لما كان لك في ذلك فخر، ولئن تعرضت له لينهكنك وسائر أهلك، وليفضحنك فضيحة لا يغسلها أبدًا عنا.

وبلغ العتابي الشاعر أن عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوءٍ، فقال:

قد كنت أرجو أن تكون نصيري ... وعلى الذي يبغى عليَّ ظهيري
وطفقت آمل ما يرجَّى سيِّئه ... حتى رأيت تعلقي بغرور

(١) يثاقف: يخاصم.

فحفرت قبرك ثم قلت دفنته ونفضت كفي من ثرى المقبور
ورجعت مفتريًا على الأمل الذي قد كان يشهد لي عليك بزور

فركب عمرو في موكبه واعتذر إليه.

وكان بين عمرو بن مسعدة وإبراهيم بن العباس الصولي مودة وقرابة، فحصل لإبراهيم ضائقة بسبب البطالة في بعض الأوقات، فبعث له عمرو مالًا، فكتب إليه إبراهيم:

سأشكر عمرًا ما تراخت منيتي أيادي لم تُمْنَ وإن هي جلت
فتًى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وذكر دعبل الشاعر أن عمرو بن مسعدة كان يقوم بأمر عمرو بن أبي بكر؛ يعني المؤملي قاضي دمشق، وكان محمد بن داود يحمل عليه، فقال:

لشتان بين المدعين وزارة وبين الوزير الحق عمرو بن مسعدة
فهمهم في الناس أن يجبهوهم وهمّ أبي الفضل اصطناع ومحمده
فاسكن رب الناس عمرًا جنانه وأسكنهم دارًا من النار موصده

وممن كان عمرو يجري عليهم الحرمازي، وكان في ناحيته، فخرج عمرو إلى الشام، وتخلف الحرمازي ببغداد لنقرس أصابه، فقال:

أقام بأرض الشام فاختل جانبي ومطلبه بالشام غير قريب
ولا سيما في مفلس حلف نقرس أما نقرس من مفلس بعجيب

يقولون: فلان منقرس كناية عن المثرى، ويشتق منه تنقرس فلان: إذا أثرى. قال المبرد: وسمعوا أن هذا الداء يكون في أهل النعمة.

ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان، فقال له بعض أصحابه: أيها الأمير لو كان الحياءُ يظهر سؤالًا، لدعاك حيائي من كرمك ومن جميع أهلك إلى الإقبال عليَّ بما يكثر به حسد عدوي دون أن أسألك، فقال عمرو: لا تبغِ ذلك بابتذالك ماء وجهك، ونحن نغنيك عن إراقته في عرض السؤال، فارفع ما تريده في رقعة يصل إليك سرًّا. ففعل.

ولقد جرى ذكر عمرو بن مسعدة في رسالة الحيدة، وفيها وصف ما جرى من المناظرة بين عبد العزيز بن يحيى المكي، وبين بشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين المأمون في مسألة خلق القرآن، جاء فيها كلام لعمرو بن مسعدة قاله لعبد العزيز بن يحيى وهو: «أيها الرجل قد حَمَلت نفسك على أمر عظيم، وبلغت الغاية في مكروهها، وتعرضت لما لا قِوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين، وادعيت بما لا يثبت به حجة على مخالفتك، ولا لأحد غيرك، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف، فانظر لنفسك وبادر أمرك، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة، فلا تنفعك الندامة، ولا يقبل منك معذرة، ولا تقال لك عثرة، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازل بك، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك، وعظيم ما كان منك، إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان، وآخذ لك الأمان منه والجائزة، فإن كانت لك ظلامة أزلتها عنك، وإن كانت لك حاجة قضيتها لك، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه، ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه».

دخل الحسن بن سهل على المأمون فقال له: كيف علمك بالمروءة؟ قال: ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فأجيبه. قال: عليك بعمرو بن مسعدة. قال: فوافيت عمرًا وفي داره صناع وهو جالس على آجرة ينظر إليهم، فقلت: إن أمير المؤمنين يأمرك أن

تعلمني المروءة. فدعا بآجرة فأجلسني عليها وتحدثنا مليًّا، وقد امتلأت غيظًا من تقصيره بي ثم قال: يا غلام عندك شيءٌ يؤكل؟ قال: فقدم طبقًا لطيفًا عليه رغيفان وثلاث سكرجات[١] في إحداهن خل وفي الأخرى مُرّى[٢] وفي الأخرى ملح، فأكلنا، وجاء الفراش فوضأنا ثم قال: إذا شئت، فنهضتُ محفظًا[٣] ولم أودعه، فقال لي: إن رأيت أن تعود إليَّ في يوم مثله. فلم أذكر للمأمون شيئًا مما جرى. فلما كان في اليوم الذي وعدني لقياه، سرت إليه فاستؤذن لي عليه فتلقاني على باب الدار فعانقني، وقبَّل بين عيني، وقدمني أمامه، ومشى خلفي، حتى أقعدني في الدست[٤]، وجلس بين يدي، وقد فرشت الدار، وزينت بأنواع الزينة، ولأقبل يحدثني ويتنادر[٥] معي، إلى أن حضر وقت الطعام، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة، فأصبنا منها؛ ونُصبت الموائد فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارها وقارها وحلوها وحامضها، ثم قال: أيُّ الشراب أعجب إليك؟ فاقترحت عليه. وحضر الوصائف للخدمة، فلما أردت الانصراف حمل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة، وقُدِّم إلى البساط فرس بمركب ثقيل فركبته، وأمر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتى سعوا بين يدي وقال: عليك بهم فهم لك، ثم قال: إذا زارك أخوك فلا تتكلف له واقتصر على ما يحضرك، وإذا دعوته فاحتفل واحتشد ولا تدعن ممكنًا، كفعلنا بك عند زيارتك إيانا، وفعلنا يوم دعوناك.

وما الحسن بن سهل بالذي يُعَلَّم المروءة، وهو الوزير العظيم العاقل العالم الذي كان مثال المروءة، زوَّج ابنته بوران من المأمون فعمل (من الولائم والأفراح ما

(١) السكرجة: قصاع يؤكل فيها صغار.

(٢) المرى: رب مملح وتقول له سلامورة.

(٣) أحفظه: أغضبه فاحتفظ.

(٤) الدست: صدر البيت.

(٥) تنادر علينا: حدثنا بالنوادر.

لم يعهد مثله في عصر من الأعصار، وكان ذلك بفم الصلح، وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها، سواء كان ضيعة أو ملكًا آخر أو فرسًا أو جارية أو مملوكًا، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم، ونوافج المسك وبيض العنبر). وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم. لا جرم أن في أمر المأمون عمه بالذهاب إلى عمرو بن مسعدة يتعلم منه المروءة ما يشعر بمنزلة عمرو من الخليفة، وأنه عظيم في أخلاقه، يعرف كيف يربي الناس عليها.

ذكر القاضي التنوخي أن المأمون أمر محمد بن بزوان والوزير أحمد بن أبي خالد أن يناظرا عمرو بن مسعدة في مال الأهواز، فناظراه فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم، فأعلم محمد المأمون بذلك، فقال له المأمون: اقبل كل حجة له وكل ادعاء وكل تعلق. قال: قد فعلت. قال: عد لذلك فعاد، فتعلق عمرو بأشياء لا أصل لها. فسقطت من المال عشرة آلاف ألف، وبقي ستة آلاف ألف درهم لا حجة له فيها، أخذ خطه بها، فأخذ المأمون الرقعة، ثم أحضر عمرًا بعد خروج محمد فقال: هذه رقعتك؟ فقال: نعم. فقال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم. قال: فخذ رقعتك فقد وهبناه لك. قال: إذا تفضلت به يا أمير المؤمنين فإنه واجب لو أجزت به أحمد بن عروة عامل الأهواز وهو مقرٌّ به، وأشهدك أني قد وهبته لك. فاغتاظ المأمون وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون وخطأه فيما عمله، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد فأخبره بالخبر وكان يخصه فقال: لا عليك. فدخل إلى المأمون فلما رآه قال: ألا تعجب يا أحمد بن عمرو، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم بعد أن تجافينا له عن أضعافها، فوهبها بين يدي من أحمد بن عروة، كأنه أراد أن يباريني ويصغر معروفي. قال: أوَفعل هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: لو لم يفعل هذا لوجب أن يسقط

حاله. قال: وكيف؟ قال: لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة وآخذ أحمد بالمال وأداه إليه، كان قد أخرجه من معروفك صفرًا، ولما كانت نعمتك على عمرو نعمة على أحمد وهما خادمان، وكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما، فقصد عمرو ذلك فصار المال تفضلًا منك على عمرو وعلى أحمد بن عروة، ومع ذلك فأنت سيد عمرو لا يعرف سيدًا غيرك، وعمرو سيد أحمد، فاقتدى في أمر أحمد بما فعلته في أمره. وأراد أيضًا أن يسير في ملوك الأمم أن خادمًا من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال من فضل إحسانك إليه، فيزيد في جلالة المملكة وجلالة قيمتها، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك، فسرى عن المأمون وزال ما بقلبه على عمرو.

وروى التنوخي أيضًا أن المأمون ذكر عمرو بن مسعدة، واستبطأه في أشياء وكان ذلك بحضرة أحمد بن أبي خالد، فأخبر به عمرًا أحمد، فدخل عمرو إلى المأمون فرمى بنفسه وقال: أنا عائذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد، ويسر عليَّ ضغنًا يظهر منه لمكانه ما ظهر، فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه، فقال: لم يكن كذلك، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرت، فقدمته قبل أن أخبرك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، وسكن ما به حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه. فلما دخل أحمد بن أبي خالد قال له: أشكو إليك من بحضرتي من أهلي وخدمي، فما للمجلس حرمة حتى تؤدي ما يجري فيه إلى عمرو بن مسعدة، فقد أبلغ لي شيئًا قلته فيه فاتهمت به بعض بني هاشم ممن كان حاضرًا، ذلك أن عمرًا دخل عليَّ فأعاد ما كان، واعتذر فجعلت أعتذر إليه بعذر لم يبن الحق نسجه، ولم يتسق القول فيه، وإن لسان الباطل ينبئ عن الظاهر بالباطن. فقال له أحمد: لا يتهم أمير المؤمنين أحدًا، أنا أخبرت عمرًا، قال: ما دعاك إلى ذلك؟ قال: الشكر لله وإليه لاصطناعك والنصح بك، والمحبة لإتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمت

أن أمير المؤمنين يحب إصلاح الأعداء والبعداء، فكيف بالأولياء والقرباء، لا سيما مثل عمرو في موضعه من الدولة وموقفه من الخدمة، ومكانه من أمير المؤمنين، فأخبرته بما أنكره عليه ليقوِّم أَوَدَ يقينه، ويتلافى ما فرط منه، وإنما العيب لو أذعت سرًّا فيه قدح على السلطان أو نقض تدبير له؛ فقال له المأمون: أحسنت والله يا أحمد، إذ أخبرتني بخاصة الظن، وصدقتني عن نفسك.

قال إبراهيم بن الحسن بن سهل: كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع، فجاءته عطسة، فلوى عنقه فردها، فرآه المأمون، فقال: يا عمرو لا تفعل فإن رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعًا في العنق. فقال بعض ولد المهدي: ما أحسنها من مولى لعبده، وإمام لرعيته. فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشام اضطربت عمامته، فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها، فقال هشام: إنا لا نتخذ الإخوان خَوَلًا! فالذي قال هشام أحسن مما قلته. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إن هشامًا يتكلف ما طبعت عليه، فما تُعْدَل[1] به، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا قيامك بحق الله، وإنك والملوك كما قال النابغة الذبياني:

ألم تـــر أن الله أعطـــاك ســـورة[2] يُـــرى كـــل مَلْـــك دونهـــا يتذبـــذب
لأنـــك شـــمس والملـــوك كواكـــب إذا طلعـــت لم يبـــد مـــنهن كوكـــب

ثروته ونعمته:

ظهر أن عمرو بن مسعدة كان ذا ثروة طائلة، على كثرة ما بذل للعلماء والشعراء وغيرهم، وقد كان له قصور في دار السلام، وله ساباط يعرف به يقال له: ساباط[3]

(١) يقال ما يعدلك عندي شيء: أي ما يشبهك.

(٢) السورة: الشرف والفضل والرفعة.

(٣) الساباط: سقيفة بين دارين أو جدارين، والطاق: عقد البناء حيث كان، والجمع: أطواق وطيقان.

عمرو بن مسعدة، وهو فوق الجسر، ومن منازله منزل بحضرة طاق الحراني إبراهيم بن ذكوان. جمع كل هذا من مال دولة خدمها بالإخلاص والعقل، وربما كان فيها ما أخذ من غير حله، إن صح ما روي أن المأمون وقَّع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة: «يا عمرو عمِّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها»، ولما مات عمرو رُفع إلى المأمون أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم. فوقَّع على الرقعة: «هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه»؛ أي: أن عمرًا خلف ثمانية ملايين دينار.

وروى المسعودي أنهم عرضوا لمال عمرو ولم يعرض لمال وزير قبله، والرواية الأولى أصح، وهي عن الصولي ابن عم عمرو بن مسعدة.

خلف عمرو هذه الثروة بعد هذا البذخ والرفاهية، في زمن كانت الخلافة العباسية سيدة الدول، وفي أيام خليفة يعرف أقدار الرجال، ويرى أنه يقلَّ في اصطناعهم كل برّ ومكرمة، وكان يعتمد على عقلهم في تدبير ملكه، وللعقل قيمة عظيمة دونها كنوز الأرض وركازها في نظر المأمون. ولقائل أن يقول: ومن أين لفرد أن يجمع مثل هذه الثروة العظيمة، وهو مقيد بخدمة الدولة؛ لا يعمل فيما يجهد له الناس في الجمع ليكون عِضّ مال حسن القومة عليه؟ فالجواب: أن الخلفاء كانوا يُقْطِعون رجال دولتهم الولايات العظيمة، وربما نزلوا لهم عن خراجها السنة أو السنين، ويهبون لهم من ضروب العطايا من ناطق وصامت، وعقار ومتاع ما يتأثلون به، والدولة التي قدرت مساحة ممالكها بنحو مساحة قارة أوربا اليوم، وضمت جميع الأقطار العامرة في آسيا وأفريقيا، إذا جمعت جميع دخلها الذي لا تحتاج إليه، تقف الحركة الاقتصادية في البلاد لا محالة، فترى من الحكمة أن تنتقل الثروة في الأيدي، وما كانت الدولة في الحقيقة تحتاج يومئذ إلى نفقات كبيرة لإطعام الجيوش وإعداد الأساطيل وتجهيزها بالمدمرات والمهلكات شأن دول عصرنا.

ولقائل ممن تشبع بروح الديمقراطية في هذا العصر أن يقول: وهل هذا هو المعقول في قيام الملك من الإفراط في الإفضال على أفراد يسوَّغون جباية قطر أو أقطار صُبرة واحدة وهي تجمع بالدانق والدرهم؟ وهل بمثل هذا نجح الخلفاء الأُول أو أرباب الدول الغربية لعهدنا؟ فالجواب أن طبيعة القرن الثاني والثالث غير طبيعة القرن الأول، وهذان القرنان الأخيران لا يشبهان بحال قرون البشر منذ عشرة قرون، خصوصًا إذا وضعنا موضع النظر أيضًا اتساع رقعة الملك، وعمران العراق وحده، دع غيره من الأقطار، فإن كل هذا أعظم حامل على البذل، ولهذا كان للخلفاء في هذا العطاء بعض مبرر لأعمالهم، وإن كان لا مبرر من إسراف، لكن حالة العمران اقتضت ذلك في الدهر السالف؛ وكان الأولى أن يعمدوا إلى القصد في الأخذ والقصد في العطاء، ويقيموا بما يفضل المصانع والمعالم في أرجاء المملكة. والمنصف يقول: إن هذا النظام البديع في تنظيم الموازنات هو وليد العصور الجديدة، وهذا التقدير وهذا التقتير حتى في التافه والقطمير، هما من خلق دول الغرب. وكان ذلك على حالة ابتدائية في عصر الأمويين والعباسيين، ولم تكن أسباب الحياة تشعبت هذا التشعب، ولا الأوضاع هذه الأوضاع، ولا الإبداع في النظم هذا الإبداع.

عرفنا من سيرة ابن مسعدة ما أطللنا به من نافذة ضيقة على ما خصت به نفسه، وانطوى عليه من الصفات السامية التي كان بها عظمته، وربما لم يخل عصره من بلغاء أمثاله لو فُتح لهم الطريق لأغنوا غناءه، ولكن الطبائع تختلف، وهذه الرقة في السياسة يصعب أن يبرز فيها كل إنسان، فهو كما كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج إلى رجل يوليه بعض الأعمال، فقال: إنه يريد رجلًا جامعًا لخصال الخير، ذا عفة ونزاهة طِعْمة[1]، قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب، ليس

(١) في الأساس: ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة بالكسر، وهي الجهة التي منها يرتزق، بوزن الحرفة.

بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مهمًّا من الأمور أجزأ[١] فيه، له سنٌّ مع أدب ولسان، تقعده الرزانة، ويسكنه الحلم، قد فُرَّ[٢] عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة[٣] من الكمال، تكفيه اللحظة، وتشرده السكتة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام في أمور فحمد فيها، له أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة، مضطلعًا مما استنهض، مستقلًّا بما حمل. اهـ.

وهذه الصفات هي صفة عمرو بن مسعدة، أنعم به وبسيده، وسقيًا لعصر أخرج عظماء يحق لنا التمجد بهم، مهما بَعُدَ العهد.

---

(١) أجزأني كذا: كفاني وهذا مجزي.

(٢) أي: جرب واختبر فيهما، وأصله من فر الدابة: كشف عن أسنانها لينظر ما سنها.

(٣) قوله: وعض على قارحة... إلخ: كناية عن بلوغه درجة الكمال.